تأملات فى الفن

العب يا ميمون العب !

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— من هذا الذى معك ؟ يا أمّه ! قرد ؟

— نعم . واحد من أبناء عمك ميمون . أبوك آدم رقاه الله ، وأبوه هو استحسن أن يظل يلعب ، فظل يلعب

— لعبت عليه نفسه ! وأين لقيت ابن عمك أنت هـذا ؟ وإياك أن تكون قد دعوته إلى مكث طويل هنا ؟

— ليته يقبل ... إنما هو مرتبط بخمسة أصدقاء استأذنهم وجاء يحييك ثم يعود إليهم عند الباب

— أبالباب خمسة قرود غير هذا ؟ لم لم تقل لى إن أسرتك الكريمة هاجرت إليك فكنا نوسع لهم بيننا نزلاً ؟

— ربما لم يكن هؤلاء الزوار جميعاً من الأهل وربما كانوا ! أولهم على أى حال اخ من بنى آدم ، وثانيهم حمار ، وثالثهم جدى ، ورابعهم كلب ، وخامسهم أوزة

— أعز الأهل ، أنعم بهم وأكرم . تعال نستقبلهم وهات ابن عمك ، فمنذ سنين وأنا لم أر أسرة كهذه ، وكنت أراها وأنا طفلة وأسر وأضحك ؛ ولكن لم أكن أتوقع يوماً أن تنسب إلىّ أو أن أنسب إليها ... لا أنا ولا أنت

— تعالى ! ها هى ذى الأسرة . أنظرى إلى كل فرد من أفرادها وقولى لى : ما هو ؟ لا تقولى هذا قرد وهذا حمار ، فإنى أعرفك تعلمين أسماءها ، وإنما أريد أن أراك هل تعرفينها هى أو أنك تجهلينها كما كنت أجهلها أنا حتى عرفنى بها صاحبها هذا الفجرى الذى يقودها ؟

— وماذا قال لك أكثر من أن الحمار حيوان من ذوات الأربع له أذنان طويلتان وصوته منكر وهو يستخدم فى حمل الأثقال ...

— هذا كلام يصفون به قشر الحمار للتلامذة ، ولكن هذا الفجرى يعرف عن الحمار مثلما يعرف عنه حمار مثله

— وأنت يا هنيئاً لك أخذت عنه هـذا العلم ... انهق لى به انهق ...

— لا بأس . ولكن ألا ترينه واجباً أن نرى الفجرى قبل أن نرى القرد والحمار ؟

— وهل فى الفجرى شىء يرى ، هو ليس فى غيره من الناس ؟ رجل مسكين يحتال على الرزق بتلعيب الحيوان

— وكم فى الناس القادر على تلعيب الحيوان ؟ إن الإنسان ليستعصى عليه أن يلعب نفسه . ومن استطاع ذلك فهو الفنان

— فكل حيوان من هؤلاء فنان ، وهذا الفجرى بينهم مثل سيسيل دى ميل أستاذ على الممثلين والممثلات ...

— هذا التشبيه صحيح لولا أنه معكوس . فسيسيل دى ميل هو الذى يحاول أن يكون فى عمله كهذا الفجرى ولكن أنى له ذلك إلا إذا عاش عيشة الفجرى ، وكم قلد الفجرَ أفراد من أهل الفن فكان كل منهم كالمسخ ما لم تكن فيه طبيعة الفجر يستر مل بها فى الحياة استرسالهم . ولا بد أن تكون قد رأيت واحداً من هؤلاء الذين ينفشون شعرهم ويطلقون لحاهم ، ويهدلون ثيابهم

فإذا عظموها اتخذوها فى الكعبة وهى بيتهم المعظم ، كما كانوا يتخذون الأصنام فى بيوتهم ودورهم . ثم رأيت أخيراً أن ابن سعد يذكر فى فتح مكة أن رسول الله بث السرايا إلى الأصنام التى حول الكعبة فكسرها ، منها : « العزى ، ومناة ، وسواع ، ويوانة ، وذو الكفين . فنادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدعْ فى بيته صنما إلا كسره »

ثم جاء كلام أبى جعفر الطبرى فى تفسير سورة النجم ج ٢٧ ص ٣٦ يقطع الشك باليقين إذ يقول . « وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول: اللات والعزّى ومناة الثالثة — أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها » ، وهذا هو المعقول ، وليس من المعقول أن تخلو كل هذه الأمة من الأصنام التى كانت حول الكعبة من تماثيل منسوبة للات والعزى ومناة الثالثة ، وهذا ليس يمنع أن تكون القبائل غير قريش مكة قد اتخذت لها أنصاباً نصبتها فى الأماكن التى ذكرها ابن الكلبي وغيره

محمود محمد شاكر

ويعربدون فى الأرض سكارى مستذئبين على أنفسهم وعلى الناس قائلين إنا نحن بوهيميون . هؤلاء هم الذين يقلدون النجر كما أن من أهل الفن من تضطره الحياة إلى أن « يتجر » نفسه فإما أن يكون تجرياً فى فنه وإما أن يتزاق فيكون تجرياً فى سلوكه مع الناس فيحتال على رزقه كما يحتال هذا التجرى بتلعيب نفسه ، وتلعيب عشرائه ، فهو محتال بارع ممن يعرفون كيف يتطبقون على الفريسة ومن أى مدخل سهل ضعيف يتسللون إلى نفسها ، وأى لسان من الألسنة المسولة يعجبها ، وأى شكل من الأشكال المنمقة المزوقة يرضيها ، وأى مطلب من المطالب تنزع إليه ، وأى شىء يسرها وأى شىء يغضبها ، وأى كلمة تثيرها وأى كلمة تردها إلى هدوئها ، وأى إشارة تحفزها ، وأى إيماءة تثبط همتها إلى غير ذلك مما تمكن النجر منه وأتقنه معهم الكهان من الناس ، والمتكاهنون .

— فالنجر كهان ؟

— هم أبرع الكهان إذا أرادوا ، ولكنهم كمعنا ميمون استحسنوا لأمر ما أن يلعبوا وما زالوا يلعبون ، ولو أنهم أرادوا أن يفتكوا بهذه الانسانية لفتكوا بها وسلاحهم ما يعلمون من شئون النفوس وأمورها ، ولكنهم يؤثرون على هذا أن يفروا من البشرية إلى مرحهم وغفلتهم ورقصهم ، فهم لا يلمون بالناس إلا حين تعوزهم حاجة ، فعندئذ ينزلون على الناس ليأخذوها ، وهم آخذوها إن أباحها الناس لهم أو منعوها ، وهم آخذوها إن حللتها الشرائع أو حرمتها ، لا يستطيع إنسان أن يردهم ، ولا أن يمسكهم بها ، ولا أن يستردها منهم ... نجر أولاد شيطان ...

— وهذا الشيطان عمنا هو أيضاً كمعنا ميمون ؟

— لا ، بل إنه خالنا أخو أمنا حواء الذى قال لها : رَجُلك خواف ، رجلك ضعيف ، شحيح إن أطعمك ما أطعمك ، فإنه يضن عليك بالتفاحة ... يا حلاوة التفاحة !

— صحيح ، إن فى عينيه بريقاً كما تلمع عيون الشياطين ... إعطهم شيئاً وتعال ...

— أنظرى إليهم وهم ذاهبون يحيطون به ... الحق أنه ما فى الأرض من يمثل سيادة الانسان على بقية الخلق كهذا النجرى ، والنجر جميعاً ، فهم البقية الباقية من الناس الذين كانوا يعاشرون الأرواح ويأتلفون بها قبل أن تهيم البشرية حباً بالحديد والحجر ، هؤلاء النجر لهم أحاديث فى كيمياء النفوس أعجب من العجب ، ليت علماءنا يستمعون إليهم ويحاولون تحقيق أحاديثهم ...

— وما كيمياء النفوس هذه أيضاً ؟ ...

— هذا بحر فيه ماء وملح يلقى الشمس فيتبخر منه الماء ويبقى الملح ، ويصعد الماء إلى السماء بخاراً . فيلقى البرد فيرتد إلى الأرض ماء حلواً ليس فيه ملح ، ويجرى على الأرض فى هضاب ووديان ويسرى فى النبات والحيوان والإنسان ، وفى الأحجار أيضاً يسرى ، ويتبخر منه عندئذ بعضه ويبقى بعضه ، ويعود منه إلى البحر بعضه ويضيع منه فى الخلائق بعضه ... هذا البحر ...

— معقول .. فكيف يقيس النجر النفوس بهذا المثل ؟

— هم يقولون هذا إنسان . فيه نفس وجسد . يلقى الحياة وما يزال يتلقاها حتى تتبخر نفسه ويظل جسده فى الأرض ، وتصعد نفسه إلى السماء فتجد حجاباً فترتد إلى الأرض تبحث عن قوة تمكنها من خرق هذا الحجاب إذا عادت مرة أخرى إلى السماء وهذه القوة فى قولهم توانى النفس بالتطهر والتلطف ، والتطهر والتلطف يجيئان فى قولهم بالتدريب . فإذا كانت نفس إنسان قضت حياتها الأولى ثائرة ساخطة وتبخرت وهى ثائرة ساخطة فتثقل بها السخط وتثقلت بها الثورة عن خرق الحجاب عادت إلى الأرض تتعلم الصبر والرضى فإذا أسعدها الحظ صادفت غلاماً حماراً ينحدر إلى الدنيا فحلت فيه ، ونزلت به إلى الدنيا تقضى حياة كلها صبر وكلها احتمال وهوان ... ورضا ، وبهذا إذا تبخرت هذه النفس مرة أخرى خفت أكثر من ذى قبل ، وربما استطاعت أن تخرق الحجاب وأن تمضى إلى عالم غير هذا العالم ، وربما عادت إنساناً أو حيواناً أو شيئاً مما يخلق الله ويعلمه ونحن لا نعلمه ...

— ولكن هذا القياس فيه فارق . فهم قد حولوا الإنسان إلى غير الإنسان بينما مثلهم الذى يقيسون عليه يحفظ الماء ماء مهما تعددت أشكاله

— فلنصلح لهم نحن هذا المثل فهم لم يتوفروا على كيمياء المادة مثلما توفروا على كيمياء النفس ، ولست إخالك تنكرين أن الذى يقولونه عن تحولات النفس يشبه الذى يقوله علماء المادة عن تحولاتها ، ولست إخالك تنكرين هذا التشابه يمر بك من غير أن تسجليه على الأقل ، أما أنا فإنى لا أكتفى بتسجيله فى ذهنى وإنما أربط بعضه إلى بعضه وإن كنت إلى الآن لا أدرى مثلما قد يدرون هم أى شىء سأربطه بعد ذلك فى هذين السببين وإلى أين سأصل بعد هذا الربط ...

— إلى ... « العباسية » من غير شك

— حتى إذا وقفتك معي على أوجه الشبه بين الذي يقوله النجر وبين الذي يقوله علماء المادة

— إن وقفت معك فأنا أيضاً في حاجة إلى علاج للرأس .

— العلاج على أي حال خير من إهمال المرض . إسمع . ألا يقول علماء المادة إن هذه الأرض كلها تشمع وتريد أن تتلاشى في الفضاء ؟ ألا يقولون إن لهذه الأرض غلافاً من الأثير وهو مادة ولكنه أخف من المادة وألطف منها وأشد شوقاً إلى التشمع والذهاب ؟ ألم يكتشفوا أخيراً عناصر من المادة لا تزال نادرة جداً وهي أقدر المواد على التشمع والتطاير ؟ إن هذه المواد هي أرق ما في الأرض مادة ، وهي أخف العناصر وألطفها ، وهي لا تزال نادرة لأنها طلائع الدور الجديد الذي بدأت مادة الأرض تدخل فيه ، والأرجح أن الأرض جميعاً ستتحول على مرور الدهور إلى هذه العناصر الخفيفة اللطيفة المتطهرة حتى تصل عندئذ إلى ما تتوق إليه من الخلاص من هذا الوضع وهذا الشكل إلى سياحتها الجديدة في الكون . وإذا كان الماء هو أكثر ما في الأرض اليوم ، والراديوم (مثلاً) هو أقل ما فيها ، فالماء إذن هو الحلقة الأولى من حلقات الحياة المادية في الأرض والراديوم هو الحلقة الأخيرة بحسب ما نرى ... أو قولي إن الأثير هو هذه الحلقة الاخيرة ... ثم قولي إن ما بين الماء والاثير من الخلائق المادية إن هو إلا تشكلات وتطورات وتحولات تنزع بها المادة إلى الانطلاق . وقيسي على ذلك النفوس كما يقيسها النجر ، ولست أطلب منك ولا من نفسي أن نعرف ما يعرفون هم إذا نظروا إلى إنسان ماذا كان قبل أن يكون إنساناً ، وماذا سيكون . فهم يدعون أنهم يعلمون هذا بالنظرة ، ولست أستطيع أن أنكر عليهم قولهم ما دمت أرى في علماء المادة من ينظر إلى الحجرة فيقول كانت شجرة وستصبح بعد قرون فحمة . فلماذا نقبل كلام علماء المادة هؤلاء ولا نقبل كلام النجر ؟ ألأنهم نجر ؟ نحن الذين دعوناهم نجراً ، أما هم فيعتبرون أنفسهم أصحاب هذه الدنيا يذرعونها من الشرق إلى الغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال لا يخضعون إلا لقوانين الطبيعة الخالدة ، ولا تفسد أنفسهم غيرها من القوانين المصنوعة التي وضعتها العقول بحساب بعد أن نسيت أول قوانين الحساب وهو أنه لا بدء ولا نهاية ، وبعد أن نسيت كذلك أن لكل حساب حساباً يعطله حتى لقد بطل عمل الحساب وصار هذا البطلان هو أساس الحساب بغير حساب ..

— على هذا الأساس أستطيع أن أستمع منك إلى كلام النجر ، فلا تحسب أني سأقتنع به ، فدون ذلك تشمع عقلي وطيران منطقي وتفكيري ، ودعني الآن أسألك على سبيل العبث والفكاهة لا أقل ولا أكثر : أي نفس كانت نفسي قبل هذه الحياة ... وأي نفس ستكون ؟

— أنت ؟ لا أدري ، ولكني أعرف واحداً كان إوزة وسيكون حماراً

— من هو ؟

— مالك أنت وماله ؟ وإنما قولي : كيف هو ؛ فأقول لك إنه كلما اطمأن إلى الحياة تمكن منه البله ، فهو يلعب في الأرض ويلعب في الماء ويحب كل شيء ، ولكنه لا يكاد يعطى من نفسه شيئاً لأحد إلا أن يجد عنده لذة ، وهو غر يصدق كل ما يحيط به ، ومن سقاه شربة ماء استطاع أن يذبحه ؛ وهو إلى جانب هذا رعديد خواف ، لأنه يعرف أنه عاجز عن رد الأذى بأذى ... كالإوزة ... له هذه الأخلاق والطبائع من نشأته فلعلها كانت طبعه الأول ، ومن عرف فيه هذا تمكن منه ولعب عليه ما شاء أن يلعب وقد لعب عليه ناس كثيرون حتى كاد أن يذبح مرة ؛ وإني أقول لك إنه سيكون حماراً ، لأني أراه إذا أفاق إلى نفسه أخذها بالصبر وبالرضا والاحتمال ، فلعله إذا تمكن هذا منه كان أصلح البشر « للحمارية » في حياته المقبلة ، ومن يدري فربما اكتفى القدر منه بصبره في هذه الحياة ، وظهره في حياته المقبلة من نقائص أخرى غير بادية لي فيه الآن ، فكان عندئذ أخف ، وألطف ، وأظهر مما عرفناه الآن ، وكان عندئذ أصلح للبقاء في أثير الأرواح انتظاراً لموكب من نوعه يلحقه فيدفعه في فضاء الله إماماً لمن يتبعه ومأموماً لمن سبقه ... من يدري ؟

— لا أحد ، ولا أنت ، ولا النجري .. ولكن هذا الكلام يشبه ما يقوله الهنود عن تناسخ الأرواح فهل أصل النجر هؤلاء من الهند؟

— الموجة البشرية المشرفة على غرب أوربا كلها أصلها من الهند

— ولكنك لم تقل لي ماذا كنت أنت ؟

— يقول داروين إن الناس كانوا قردة ، ويقول القرآن إن من الناس من ردهم الله قردة ... وإني أقبل القولين في حق نفسي وإن كنت لا أصدق فيك أنت قول داروين ...

عزيز احمد فهمي